

خاتمة

سواء تعلق الأمر بالكتابات الجنائزية على شواهد القبور أو في الصّحف والجرائد، فإن كلاهما يستمد مضامينه ؛ أولاً : من ثقافة ما قبل الإسلام، التي نجد فيها مثلاً : صيغة "الموت كأس وكل الناس شاربه* والقبور باب وكل الناس داخله". وثانياً : من النصوص الدينية الإسلامية ؛ القرآن والحديث خاصة. وهذا ما توصل إليه كل : من مركو شولروورنرديم في المؤلف المتكون من جزأين عن "الحياة والموت في الإسلام" (The living and the Dead in Islam, 2004). وقد أطلق المختصان على النصوص الإيغرافية في شواهد القبور Epitaph وهاته الكلمة مرادفة للنقوش على الأضرحة والقبور.

وعليه، فإن لمقاربة هذه الظاهرة، يوجد مصادر إيغرافية ؛ (مصدر مادي) مثل : "الفهرس الكرونولوجي للنقوش العربية". وهناك مصادر غير إيغرافية منها : القرآن والحديث ورسائل العزاء. وتأثر خطاب النقوش الجنائزي بخطابات أخرى منها : الحديث، ورسائل العزاء، والشعر الديني والزهد، وشعر المدح، والنقوش غير الجنائزية، والسّير الأدبية والأسلوب والخطاب القرآني الذي يؤكد حتمية الموت في قوله تعالى : "كُلُّ مَنْ عَلِمَهَا فَإِنَّ¹ والسكينة الذي يجزي الله بها، في قوله: "يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي"². وأكد توماس بور Thomas Bauer أن فهم الموت في الإسلام لا بد من أن يتم انطلاقاً من مصادر متعددة وخطاب الموت في شعر الزهد والتصوف (الزهديات) والخطاب الأدبي في القرون الوسطى حول المصير

¹ سورة الرحمن، الآية : 26.

² سورة الفجر، الآيات : 27، 28، 29، 30.

بعد الموت مثل كتاب القرطبي حول "التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة". وقد أثر القرآن على الرثاء في الصيغة وفي الرؤية الإسكتولوجية كما هو واضح في هذا المثال :

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَهِي لَيْسَ لِي عَمَلٌ أَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ ، وَلَا حَسَنَةٌ أَذِلُّ بِهَا عَلَيْكَ ، غَيْرَ فَقْرِي وَفَاقَتِي وَذُلِّي وَوَحْدَتِي ، فَارْحَمْ غُرْبَتِي ، وَكُنْ أُنَيْسِي فِي حُفْرَتِي ، فَقَدِ التَّجَاؤُ إِلَيْكَ ، وَتَوَكَّلْتُ عَلَيْكَ ، وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

"رَبَّنَا أْتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"³.
 "رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"⁴.

ويعتبر الحديث أيضا مصدرا للمفاهيم الإسكتولوجية، وكذلك منح المؤلفين اهتماما للشعر العربي والذي من خلاله تبرز الانفعالات والأحاسيس والمعتقدات والقيم وهو ضروري من أجل تشرح الثقافة. والشعر (شعر الزهديات والمراثي : أبو العتاهية) مذكور في النقوش الكتابية الموجودة في الكتابات الشاهدية. ومن خلال مجموعة النصوص الشعرية المقدمة، نلمس وجود بكاء على الأموات والتعبير عن وجعة الفراق وتقديم مواعظ وحكم بخصوص ذلك من قبيل:

إذا أمسى فراشي من تراب * وصرت مجاور الرب الرحيم

فهنوني بإخلائي وقولوا * هنيئنا قد قدمت على كريم

(The living and the Dead in Islam, 2004, p.625)

³ سورة التحريم، الآية : 8.

⁴ سورة الممتحنة، الآية : 4.

وتندرج الكتابات الجنائزية الموجودة في الجرائد اليوم ضمن هذا السياق الثقافي والتاريخي العام، ويضاف إلى التأثيرات السابقة، تأثير الفترة الكولونيالية في تنظيم هذه الممارسات (الحالة المدنية، والكتابة باللغة الفرنسية...). وقد حافظت تلك الكتابات على صيغها الجوهرية، علما أن تعميمها وانتشارها أفتقدها كثيرا من فنيها وتنوعها، فصارت موجزة تكتفي بالأهم (هوية المتوفى، وتاريخ الميلاد والوفاة والدعاء). وتعتبر الجرائد متنفسا وامتدادا، فهي متنوعة ومستمرة من لحظة الإعلان عن الوفاة (اليوم الأول)، والتعازي (من اليوم الثاني للوفاة إلى نهاية الأسبوع الأول)، والشكر (بعد نهاية الأسبوع الأول)، والأربعينية (أربعون يوما بعد الوفاة) وأخيرا الذكرى السنوية التي تتجدد كل سنة ويتوافق تاريخها مع تاريخ الوفاة. وتتميز هذه التعابير بأنها تستعيد المضمون الشاهدي ذا الأبعاد والمعتقدات الدينية مع إضافة موقف الأقارب وأحاسيسهم المتعلقة بالفقدان. وتتراوح النصوص في الصّحف بين القصر والطول؛ حيث إن المساحة المخصصة لذلك محكومة بالسعر. وفاعلها كثير، منهم الأصدقاء؛ والأقارب، والجيران وزملاء العمل. وهذه الممارسة ليست متاحة للجميع نظرا لعدة أسباب منها:

المستوى الثقافي (القدرة على كتابة النص، الاطلاع على الجرائد، معرفة عنوان مقر الجريدة...)،

القرب من مقرات الجرائد اليومية الموجودة مقراتها في الحواضر والمدن الكبرى،

المستوى الاقتصادي نظرا لأن الإعلانات مدفوعة الأجر وليست مجانية. وهنا يكمن الفرق بين الإعلانات الجنائزية الخاصة بمديري المؤسسات وكبار المسؤولين وبين تلك الخاصة بالمواطنين "العاديين"، سواء من حيث الحجم أو من موقع الإعلان في الجريدة.

وأخيراً، قبول التعبير عما هو حميمي، وعائلي وخاص في فضاء عمومي.
 وفي كل الأحوال فإن الممارسات في كلا الفضاءين (المقبرة-الجرائد) محكومة
 بمنطق واحد ويتمثل في "الإعلان والتشجيع" مع استهداف جلب أكبر قدر من
 الدعوات وطلب الرحمة. وإذا كان الأقارب يسعون لدفن ذويمهم بقرب الممرات
 والمداخل أو المخارج الكبرى للمقابر، فإنهم يسعون أيضاً لوضع إعلاناتهم في
 صفحات الجرائد الأكثر مقروئية أو في الصفحة الأولى وبالأحجام والمساحات
 الكبرى إن سمحت إمكاناتهم بذلك.

ومن أجل فهم الممارسات الكتابية (في الجرائد وفي الشواهد)، فلا مناص من
 استنطاق المستويات الشفهية بنوعها العالم (قراءة القرآن، وصيغ التعزية،
 والأدعية...) والعامي (العدادات. والفقيرات) إضافة إلى الممارسات الطقوسية
 (الصلاة، والصدقات، وزيارة المقابر...) التي تعتبر جميعها مداخل رئيسية لفهم
 وقع حدث الموت على الفاعلين وموقفهم منه.